خطوات إلى الله

كلمتكم في المرات الســـابقـة عن خطوات كثيرة في الطريق إلى الله. واليوم أريد أن أكلمكم عن الضـمير ومدى صـلاحيته وتأثير ذلك على الحياة الروحية...

الضمير ومدى صلاحيته[1]

الضـمير ليس صـوت الله في الإنسـان. لأن الضـمير يمكن أن يخطئ، وأن ينحرف، وصوت الله لا يمكن أن يخطئ...

الضـمير داخل الإنسـان كالعقل والروح، فالعقل يمكن أن يخطئ، وكذلك الروح وكذلك الضمير.

توجد أمثلة كثيرة تظهر إمكانية خطأ الضمير وانحرافه:

قال السيد المسيح لتلاميذه "تأتي ساعة... يظن فيها كل من يقتلكم إنه يقدم خدمة لله"! ولا شك أن الضمائر التي تظن قتل الرسل خدمة لله، هي ضمائر منحرفة.

بنفس الوضـع عباد الأوثان، الذين كانوا يظنون قتل المسـيحيين تطهيرًا للأرض من كفرهم، ضمائرهم أيضاً كانت ضالة.

مثال ذلك أيضـاً أهل الجاهلية الذين وقعوا في وأد البنات، وأيضـاً الناس الذين يوزعون السجاير في الجنازات على ضيوفهم، وضميرهم يتعبهم إذا لم يقدموها!! وكذلك أيضاً الذين يستخدمون الميكرفونات بطريقة تتعب النـاس، وتؤذي المريض، وتعطـل الطـالـب عن مـذاكراتـه، وتزعج النـائم المحتاج إلى راحة...

---

[1] مقال لقداسة البابا شنوده الثالث – بمجلة الكرازة – السنة التاسعة – العدد السادس والثلاثون 8-9-1978

أن الضـمير قاضي يحب الخير، ولكنه ليس معصـوماً من الخطأ. كما أن الخير يختلف مفهومـه عنـد كثيرين. والضـــمير أيضـــاً يقع تحت تأثيرات كثيرة، نذكر في مقدمتها: المعرفة.

المعرفة تؤثر على الضمير.

المعرفة الســـليمة تجعل الضـــمير يســـتنير بالفهم، لأنه ما أكثر الذين يخطئون عن جهل، وإذا عرفوا يمتنعون عن الخطأ.

شاول الطرسوسي كان أحد الأتقياء الذين أخطأوا عن جهل...

ولذلك نراه يقول "أنا الذي لست مستحقاً أن أدعي رسولاً لأني اضطهدت كنيسـة الله. ولكنني رحمت، لأني فعلت ذلك بجهل". ولكن الجهل لا يمنع من أن الخطية خطية.

ونحن نصـــلي في الثلاثة تقديســـات ونطلب من الله أن يصـــفح لنا عن خطايانا التي فعلناها بمعرفة، والتي فعلناها بغير معرفة، وفي العهد القديم كان الذي يفعل خطية ســـهواً (بجهل): إذا أعلموه بها، يقدم عنها يقدم عنهم ذبيحة لإثمه لتغفر له (لا 4).

ما أعمق قول الرب "هلك شعبي من عدم المعرفة".

لهذا أرســـل الرب الأنبياء والرســـل والمعلمين والكهنة والمرشـــدين، لكي يعرفوا الناس طريقه، لأن ضـــمائرهم لم تعد كافية لإرشـــادهم، أو لأن ضمائرهم قادتهم في طريق خاطئة.

والكتاب المقدس أيضـــاً، هو لإنارة الضـــمير، ولهذا قال داود "لو لم تكن شريعتك هي تلاوتي، لهلكت حينئذ في مذلتي".

ولأن ضمير الإنسان قد لا يكون كافياً لإرشاده الروحي، أوجد الله آباء الاعتراف، المرشـــدين الروحيين، لأنه "هناك طريق تبدو للإنســـان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت"...

كما أن الشـــيطان قد يحاول أن يتدخل لكي يرشـــد الإنســـان إلى طريق منحرف، كما فعل مع أمنا حواء في القديم.

المعرفة إذن تؤثر في الضمير، صالحة كانت أم خاطئة.

المعارف الخاطئة يمكن أن تقود الضمير أيضاً. ألم تكن الفلسفة الأبيقورية المبنية على اللذة تقود ضمائر تابعيها؟ وكذلك الفلسفات الالحادية، ألم تؤثر على ضمائر من أعتنقها، وتحرفه عن طريق الإيمان كله وتؤثر على سلوكه؟

الذين يعترفون بخطاياهم تأثرت ضمائرهم بالإيمان السليم الذي تعلموه. والذين يرفضون الاعتراف من الشيع البروتستانتية تأثروا هم أيضاً بالمعرفة التي تلقنوها ضد الاعتراف.

هناك معلمون يدعون تلاميذهم إلى الجدية الكاملة، وعدم الضحك إطلاقاً، لأنه "بكآبة الوجه يصلح القلب". ومعلمون آخرون يدعون تلاميذهم إلى البشاشة وحياة الفرح، لأنه "للبكاء وقت وللضحك وقت". وحسب نوع المعرفة، يتأثر الضمير...

هناك من يقولون إن تحديد النسل خاطئ، فيتعب ضمير من يحدد نسله. وآخرون يقولون إنه محلل، فيستريح الضمير بذلك...

لكل هذا، ينبغي وجود وحدة في التعليم في الكنيسة، حتى لا تتبلبل ضمائر الناس بما تسمعه من تعاليم متناقضة...

ولهذا قام التعليم في الكنيسة على التسليم، لكي يحتفظ التعليم بنقاوته، وليحتفظ بوحدته. فقال بولس الرسول" تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً" (1كو11: 23) وقال لتلميذه تيموثاوس "وما تسلمته مني بشهود كثيرين أودعه أناساً أمناء." (2تي2: 2) المعرفة تقود الضمير، لذلك أشترط في الأسقف أن يكون صالحاً للتعليم، لذلك أيضاً وبخ السيد المسيح الكتبة والفريسيين لأن تعليمهم كان يضلل ضمائر الناس. ولهذا أيضاً تكلم الكتاب عن "معلمين كذبة" وقال لإسرائيل "مرشدوك مضلون"...

إن ضـمائر الناس تتأثر بمعرفة ما هو الخير والشـر، وتتأثر أيضـاً من جهة الإيمان بالمعلومات العقائدية.

وربما تكون المعرفة من الكتب، والنبذات، أو من الاجتماعات. ولهذا يحسـن أن يدقق الشـخص في الكتب التي يطلع عليها، وفي نوعية الاجتماعات التي يحضرها...

تأثير الضمير بالجماعة:

في وسط الجماعة يتأثر الإنسان بالانفعال وبضمير الجماعة. وقد يقترف أمراً، إذا خلا إلى نفسه، يوبخه ضميره عليه.

مثل شـاب يندفع وسـط مظاهرة يهتف ويخرب. فإذا قبض عليه وألقى في السـجن، فأنه وهو وحده في هدوء السـجن، يفكر بطريقة أخرى غير هتافه وسـط الجماعة. وأيضـاً قد يعبث شـاب ويلهو وسـط جماعة من أصدقائه، دون أن يصحو ضميره أو يوبخه. فإن خلا إلى نفسه، وبخه.

في وسـط الجماعة صـاحت جموع اليهود "أصـلبه، أصـلبه"، مخالفين ضـمائرهم، أو انسـياقاً دون دراية بخطورة ما يفعلون. ولذلك قال الرب على الصـليب "يـا أبتـاه أغفر لهم، لأنهم لا يـدرون مـاذا يفعلون"، لأن ضميرهم تعطله دوامة الجماعة.

وفي وسط الجماعة، قد تقود الضمير الشائعات والإثارات. وقد يصدق ما يقولون ويتصرف متأثراً بما سمعه.

أن مريم المجدلية مثال واضح لتأثير الجماعة على الضمير.

لقد رأت المسيح، وأمسكت بقدميه، وسجدت له (مت 28) وسمعت منه قوله "اذهبي وقولي لأخوتي أن يمضوا إلى الجليل، هناك يروني". ومع ذلك لما اندمجت وسط الجماعة، وسمعت الشائعات التي نشرها الكهنة عن سـرقة الجسـد المقدس، ذهبت إلى بطرس ويوحنا وقالت لهما "أخذوا سيدي، ولست أعلم أين وضعوه" وقالت نفس الكلام للملاك (يو20).

الضـمير قد يتشـجع إذا أثرت عليه جماعة صـالحة، وقادته إلى الخير. ولكنه قد يتراخى وينام في وسـط جماعة منحلة، أو قد تتغير مبادؤه، ويحكم على الأمور حكماً مختلفاً. وهذا ما نلاحظه في بعض من يتركون بلادهم لمدة طويلة...

ولهذا فإننا نرى ضـــمائر الســـواح والمتوحدين، تختلف اختلافاً كبيراً عن ضمائر العلمانيين، في حساسيتها، وأحكامها، واستنارتها، بل قد تختلف عن ضمائر كثير من رهبان المجامع...

على أن هناك ضـــمائر قوية، قد لا يطغي عليها تيار المجتمع، وإنما هي التي تؤثر فيه. مثال ذلك الأنبياء والمصلحون:

إنهم لم يتأثروا بفسـاد جيلهم، بل تولوا قيادته، وغيروه إلى أفضـل. ولكن ليس كل إنسان أقوى من الجماعة...

هؤلاء الأقوياء يتصفون بالصلابة والصمود وعدم الانقياد. إنهم يذكرونني بالجنادل الســـتة التي اعترضـــت مجرى النيل، ولم تؤثر فيها كل تياراته ومياهه وأمواجه مدى آلاف السنين...

الضمير يتأثر بالقادة:

الضـمير أيضـاً يتأثر بالقادة والمرشـدين والمعلمين والمشـهورين والآباء.

وكثيراً ما نجد إنساناً صورة طبق الأصل من أبيه الروحي أو الجسدي، في أســـلوبه، في أفكاره، في طباعه، بل حتى في حركاته. يعتنق كل مبادئه، ويتأثر بها ضميره، وتصير جزءاً من طبعه، وبخاصة بالنسبة إلى المبتدئين، والذين في فترة تكوين مثالياتهم.

ولكني أعرف إنساناً قديساً، وقف ضد هذا التيار...

إنه بولس الرسول، الذي وقف ضد بطرس الرسول أحد الثلاثة المعتبرين أعمدة في الكنيســة (بطرس ويعقوب ويوحنا). وأحد الذين وضـعوا عليه اليد وأرســـلوه للخدمة (أع13: 3) ومع ذلك لما تصـــرف القديس بطرس

تصـــرفاً يلام عليه، قال القديس بولس "وبخته مواجهة، لأنه كان ملوماً". وقـال لـه "إن كنـت وأنـت يهودي تســـلـك كـالأمم، فلمـاذا تلزم الأمم أن يتهودوا؟!"... (غل2: 14).

هذا هو تصـرف الضـمير صـاحب المبادئ، الراسـخ في معرفته للحق والخير، الذي لا تغير موازينه تصرفات الناس الكبار...

الضمير تؤثر عليه الرغبات:

الرغبات والعواطف، حباً كانت أم كرهاً، تؤثر على الضـــمير في أحكامه وفي سلوكه، إذ يندر أن يوجد من يحكم في شيء حكماً مجرداً تماماً عن الرغبات وعن العواطف.

يقع إنســـان في مشـــكلة، يرى أنها لا تحل إلا بالكذب، فتراه يســـمي الكـذب ذكـاءاً أو دهـاءاً، وإن أدان تصـــرفـه، فـإنـه يخفف حكمـه عليـه جـداً، ويلتمس لـه ألف عـذر، ولا يشـــتـد بنفس الشـــدة التي يحكم بهـا على تصـرفات الآخرين.. وقد يسـمى بعض الكذب بالكذب الأبيض، أو يسـميه مزاحاً..

وقد يحب إنسـاناً، فيدافع عن كل تصـرفاته، مهما كانت خاطئة، دون أن يتعبه ضـميره! بل قد يتعبه ضـميره إن لم يدافع! ويسـمى هذا الدفاع الخاطئ لوناً من الوفاء أو الواجب. وربما يدعو غيره أن يســـلك مســـلكه، ويتكلم بحماس شـديد وانفعال، يتعطل معهما عمل الضـمير، وينسـى قول الكتاب: (أم17: 15).

"مبرئ المذنب، ومذنب البريء، كلاهما مكرهة للرب"...

إن الذي يبرر المذنب، هو إنسان ضد الحق، وضد العدل. ولا يستطيع أن يعتذر عن هذا، بالعطف أو الرحمة... إذ يمكنه أن يعترف بأن هناك ذنباً، ثم يطلب لهذا الذنب العطف والرحمة أما تبرئة الذنب، فهي اختلال في الضمير...